هكذا عرفت البكر وصدام: رحلة 35 عاما في حزب البعث (الاخيرة)

شفيق الكمالي اعتقل بسبب شريط مسجل لابنه يسخر فيه من السلطة.. ومات في ظروف غامضة قبل أن يسجل روايته

صدام زار بيت الشاعر واعجب بصالته العباسية.. وقرر عام 2000 تغيير النشيد الوطني الذي كتبه الكمالي

اعدها: هارون محمد*

طه محي الدين معروف

تعرفت على طه معروف لأول مرة عقب أحداث 30 تموز/ يوليو 1968 حين ضمنا مجلس الوزراء في تشكيلته الأولى، وحيث كان يشغل منصب وزير الدولة في حين كنت أتولى مهام وزارة الاقتصاد. لكن ظروف العمل الرسمي لم تساعد في حينه على تعميق التعارف معه خاصة مع عدم وجود رابط اقتصادي بين حقيبتينا الوزاريتين. لكن فرصة أخرى لتعميق التعارف حانت حين أصبح سفير العراق في ايطاليا، وكنتُ حينها في طريقي الى العاصمة روما ضمن وفد جاب عددا من الدول الأوروبية حول الأمور النفطية بعد خطوة التأميم في العراق عام 1972. وقد لمست فيه، من خلال حديثه وسلوكيته، الرقة والدقة والتواضع، وهي صفات استمر يتحلى بها ولم تفارقه يوما واحدا. بعد لقائنا في روما ومن ثم تعيينه نائبا لرئيس الجمهورية عام 1974، رافقته في مهام رسمية عديدة. ومن الصدف الطريفة أن أصبح مكتبه في الطابق الأرضي من مبنى المجلس الوطني وهو الطابق نفسه الذي كان يضم مكتب صدام، فيما كان مكتبي في الطابق الأول، ما يسر تكرار زيارات المجاملة في ذلك المبنى خلال أوقات الدوام الرسمي. جاء قرار مجلس قيادة الثورة بتعيين طه معروف نائبا لرئيس الجمهورية باعتباره من الأكراد، وحيث ابتغى الحكم اضفاء رمز مشاركة الأكراد عليه، وكان يسعى للبحث عن شخصية يسهل التعامل معها. فجاء تعيينه عضوا في مجلس قيادة الثورة في وقت لاحق عام 1982 الى جانب منصب نائب رئيس الجمهورية. وشكلت عضويته في مجلس قيادة الثورة استثناء من القاعدة التي كانت سائدة وتقصر الأمر على الرفاق المتقدمين في حزب البعث(1). رافقتُ طه معروف في الوفود الرسمية التي ترأسها الى كل من: اليابان في كانون الثاني/يناير 1977 واندونيسيا في كانون الثاني/يناير 1977وبلغاريا في كانون الثاني/يناير 1978 وألمانيا الديمقراطية آنذاك في كانون الثاني/يناير 1978.

زيارته الرسمية لليابان

خلال زيارة طه معروف الرسمية الى اليابان في النصف الثاني من شهر كانون الثاني/ يناير 1977 خصصت الحكومة القصر السابق لامبراطور اليابان مكانا لاقامة رئيس الوفد العراقي وأعضائه. وكان القصر في غاية المتانة والاناقة التي لم أشهد له مثيلا من قبل، فالأعمدة الجبارة والسلالم الرحبة وأرضياته الواسعة من المرمر الزاهي بلونه الوردي وبصمات الطبيعة الجميلة على صفحاته تعبر أصدق تعبير عن الدقة والبذخ والاهتمام براحة الامبراطور وقدسيته. خلال زيارتنا لطوكيو استقبلنا امبراطور اليابان يوم 20 من شهر كانون الثاني/يناير في قصره المحاط بحدائق غناء، وكان لافتا بهدوئه عندما يتحدث وتواضعه عندما يبدر منه شيء، ثم استضافنا على حفل غداء تكريمي ساده بروتوكول دقيق. وكنا نعرف مسبقا، عبر بطاقات الدعوة الواصلة في وقت مبكر، مخططا لقاعة الغداء ومدخلها وأماكن الجلوس المحددة لكل شخص. وفيما أخذ الامبراطور هيروهيتو مكانه عند وسط الطاولة الرحبة وبجانبه ضيفه طه معروف، جلس ابنه ولي العهد الأمير أكيهيتو في المقابل(2). وحين ألقيت نظرة على الدائرة الحمراء الموضوعة على خارطة الجلوس المقدمة لي في وقت سابق علمت أن مكاني على يسار الأمير الياباني ميكاسا(3). وكانت تلك المناسبة فريدة للتعرف على الامبراطور شخصيا ورموز عائلته وتواضعهم ومجاملاتهم منقطعة النظير. لكن البروتوكول الياباني الدقيق لم يسمح بالتقاط صورة تذكارية مع الامبراطور الا لطه معروف كنائب لرئيس الجمهورية. كان جلوسي بجانب الأمير ميكاسا، وهو بعمر 62 عاما حينها، فرصة ثمينة للتحدث معه في العديد من المواضيع، والاستماع الى نظرته الواسعة والدقيقة في المجالات السياسية والاجتماعية على الصعيدين الياباني والدولي. وكان قد جمع خبرة واسعة من خلال كونه رئيسا لمركز الشرق الأوسط الثقافي في اليابان، ورئيسا فخريا لعدد من الجمعيات الدولية الاجتماعية والثقافية والانسانية.

والى ألمانيا الديموقراطية في هذه الزيارة، التي ترأسها طه معروف، للفترة من 7 ـ 10 كانون الثاني/ يناير 1978 ضم الوفد الرسمي العراقي 16 شخصا، كنت من بينهم وكذلك الدكتور سعدون حمادي وزير الخارجية والسفير العراقي في برلين السيد زهير البيرقدار وموظفون كبار من وزارات الخارجية والتجارة والتعليم العالي والبحث العلمي والزراعة والاصلاح الزراعي والتخطيط، وكذلك لجنة المتابعة لشؤون النفط وتنفيذ الاتفاقيات، الى جانب 5 اشخاص مرافقين. كان برنامج الزيارة حافلا، وسمي السيد غونتر كلايبر، الشخص الثاني في الوفد الألماني، مرافق الشرف للوفد العراقي، وهو مرشح المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد ونائب رئيس مجلس الوزراء ووزير صناعة الماكنات. يوم الاثنين استقبل ايريش هونيكر الأمين العام للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد ورئيس مجلس الدولة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية طه معروف، وكنا ثلاثة رفقته، أنا والدكتور حمادي والسفير العراقي البيرقدار. وكان هونيكر مغتبطا بتطور العلاقات بين البلدين، وعبر، بصوت حاد النبرات كعادته، عن دور الامبريالية المزري بزعزعة السلام بين الشعوب وسعيها للسيطرة على ثروات الأمم، ودعم بلاده للجهود الرامية لازالة التوتر في الشرق الأوسط ولحصول الشعب الفلسطيني على حقه كاملا. وفي ذات اليوم استقبلنا أيضا السيد فيلي شتوف عضو المكتب السياسي للحزب ورئيس مجلس الوزراء، مؤكدا أهمية استمرار المشاورات السياسية في المسائل ذات الاهتمام المشترك وتبادل الخبرات على صعيد الدولة والمجتمع، ورغبة بلاده بتعميق العلاقات الاقتصادية مع العراق وفق منظور بعيد المدى ودور اللجنة المشتركة الدائمة الألمانية العراقية بهذا الشأن. وخلال مكوثنا في برلين نظمت زيارتان فريدتان، كانت الأولى، كما عبر عنها برنامج الزيارة الرسمي، زيارة حدود الدولة عند بوابة براندنبورج. وقفنا عند البوابة، وأجسامنا تلامس جدار برلين الشهير، ملقين نظرة بعيدة، ونفوسنا مليئة بالدهشة والتأثر، على أرض واحدة وشعب واحد قضت الحرب العالمية بهذا المصير، فيما انشغل الرافقون الألمان يحدثوننا عن الاعتداءات والتجاوزات من جانب الخصم المقابل (المانيا الغربية)(4). وخصصت المناسبة الثانية لزيارة أحد متاحف الدولة في برلين، وهو متحف بيرغامون، حيث أمضى طه معروف وبقية الوفد وقتا طويلا في مشاهدة معالم بابل التاريخية، «باب عشتار» الحقيقي. وكان الألمان أعادوا نصب الجدران بمجسماتها الفريدة والوانها الرائعة بكل صبر ودقة من ملايين قطع الأحجار الصغيرة التي نقلتها صناديق البعثات التنقيبية الألمانية الى برلين في فترة ضعف الحكم الوطني في العراق. ومع الشعور العارم بالفخر الذي ملأ نفوسنا فقد ظل طه معروف يتحدث معنا ساعات طويلة بعد انتهاء الزيارة حول تلك الآثار النادرة لحضارات بلاد الرافدين في تلك العصور السحيقة.

شفيق الكمالي والمأساة التي حصلت له

ما يؤسف له أن تكون مبارحة ابن عمي شفيق الكمالي، الشاعر الأديب والرسام المبدع، الدنيا قبل تدوين مذكراته، فقد توفي في 15 كانون الأول/ ديسمبر 1984 وسط ظروف غامضة، وبذلك رحلت معه كل الأحداث التي عايشها وكان الشاهد عليها، في السياسة كما في النضال، طيلة نحو أربعة عقود من الزمن. رافق شفيق حزب البعث منذ بدايات نشأته، وتعرض للمطاردة والسجن والتعذيب مرات ومرات، وشارك عضوا في القيادتين القومية والقطرية، وساهم عضوا في مجلس قيادة الثورة وتولى مناصب وزارية ودبلوماسية منذ عام 1968، وتوج أعماله الشعرية بوضع كلمات النشيد الوطني العراقي، ثم وجد نفسه أخيرا ملاحقا ضمن قائمة المنبوذين والمطاردين من قبل نظام الحكم شأنه شأن غيره من الحزبيين القدامى. شفيق الكمالي عديلي وابن عمي ولد في مدينة (البوكمال) السورية عند الحدود العراقية بعد أن شطرت معاهدة (سايكس بيكو) ابان الحرب العالمية الأولى عائلة قدوري الساكنة على شريط نهر الفرات من (عانة) الى (دير الزور) الى شطرين، واحد في العراق والآخر في سورية. أدرك شفيق قبل رحيله بسنوات أن الحكم بات يناصبه العداء لآرائه وانتقاداته المريرة، لكن لم يكن من يد سوى الاذعان لانحسار دوره في الحزب والدولة خشية مما هو أعظم. في آخر لقاء جمعني به في داره ببغداد يوم 29 حزيران (يونيو) 1982 تحدث عن سياسات الحكم الطوباوية بقلب مليء بالأسى وعينين تراقبان أياما سوداء آتية. قال لي: يا فخري، لقد نفد الصبر ولم يعد لي الا تجنب ما يحاك في الظلام، ولم يعد يهم حتى العمل بالبقالة في عمان بضمير مرتاح!. وفي ختام حديثه ألح علي بعدم العودة الى بغداد، دفعا لما قد يدبر ضدي أنا الآخر من مكائد. بعد نحو عام من ذلك اللقاء أعلمتني زوجته هاتفيا من بغداد تعرضه ونجله يعرب لموقف سيء دون أن تفصح عن حقيقة الأمر لخشيتها من العيون التي تراقب الهاتف، لكني وقفت على التفاصيل عندما حانت فرصة أفضل.

اعتقال نجله يعرب من كليته

أوائل شهر تموز (يوليو) 1983 ألقت أجهزة الأمن العراقية القبض أولا على نجله الأكبر (يعرب) الطالب في كلية العلوم بجامعة بغداد أمام منزله واقتادوه الى سيارة أمن كانت تنتظر، ولم يعلم بالأمر سوى الجيران الذين سارعوا لاعلام ذويه بما حل. وعلم ابنه أثناء التحقيق والتعذيب أن السبب يكمن في شريط مسجل له مع بعض من زملائه خلال تبادله دعابات ساخرة بالسلطة وبعض رموزها. قبع الابن في أقبية أجهزة الأمن أسابيع دون أن يتمكن والده من فعل شيء، فقد كان هو الآخر مغضوبا عليه من قبل صدام ومراقبا من قبل أجهزة الأمن والمخابرات. ولم يجرؤ حتى الأصدقاء والأقارب على التدخل لأن ذلك يعني تجاوز الخطوط الحمراء بمفهوم النظام في ذلك الزمان. وبعد مضي نحو شهر اضطر الابن، تحت تأثير التعذيب، للاعتراف بأن كل ما ردده في الشريط المسجل كان مقتبسا من والده، ونحو الساعة الثالثة بعد ظهر أول أيام شهر آب (اغسطس) 1983 توجهت أجهزة المخابرات الى دار شفيق بهدف القاء القبض عليه. في تلك الساعة كان في المنزل زوجته وابنه تغلب وابنته حنان وطفلتها البكر زبيدة التي لم تتجاوز في حينه العام الواحد، يتجاذبون أطراف الحديث مع أقرباء جاؤوا للزيارة.

حجز أفراد اسرة الكمالي في المخابرات

دخل أفراد المخابرات الدار متسائلين عن شفيق فأجابتهم الزوجة انه في مدينة الموصل في مهمة أدبية، فلم يصدقوها ليبدأوا رحلة تفتيش طالت كل غرفة وزاوية من أرجاء المنزل، وهم في حال من التهكم على استفسار الزوجة ان كان لديهم اذن خطي بما يصنعون، اذ كيف يصح الاستفسار عن مثل هذا الأمر وبرزان الأخ غير الشقيق لصدام هو نفسه رئيس المخابرات. وحين لم يجدوه اقتادوا زوجته وجميع من كان في المنزل آنذاك الى احدى السيارات الاربع المنتظرة أمام الدار. ولاحظت الزوجة أن شخصا يبدو انه رئيس المجموعة أدار ظهره عند توجه المحتجزات الى السيارات متجنبا التعرف على وجهه. وقيل لها ولمن معها أنهن يتلقين مكرمة لعدم ربط عيونهن بعصائب سوداء، وهو الاجراء المتبع مع كل من يدخل مبنى المخابرات. وقد تبين من مجريات الأحداث ان العائلة ومن كان معها صدفة في تلك الساعة اعتبروا رهائن ريثما يتم القبض على شفيق. في ذلك الوقت كان شفيق ما يزال في مدينة الموصل، ويبدو أن المخابرات خشيت افلاته من قبضتها، فرددت اشاعة حول نيته الهروب الى سورية. جيء بشفيق الى المخابرات في بغداد عند الساعة الحادية عشرة والنصف مساء. وفي منتصف الليل أخلت المخابرات سبيل الزوجة والمحتجزات الأخريات وتركتهن أمام البناية في حيرة حتى أنقذت حالتهن سيارة أجرة (تاكسي)، حيث توجه الجميع الى دار عبد اللطيف شقيق شفيق ليقضوا ما تبقى من الليل هناك. وفي الصباح توجهت الزوجة مع ابنها تغلب البالغ من حينه 17 عاما الى دار أخي هاشم في بغداد للاقامة المؤقتة، بعد أن منعتها المخابرات من العودة الى منزلها نتيجة قرار بحجزه وبقية أملاكه الأخرى. مضى على اعتقال شفيق نحو عشرة أسابيع دون توجيه تهمة جادة، فسئم من الحالة التي لم تتضح نهاية لها، ما دفعه الى التهديد بالاضراب عن تناول الطعام مطالبا اما بتقديمه للمحاكمة ان كانت هناك تهمة أو اخلاء سبيله. ومن المفارقات التي يصعب على الانسان استيعابها انه فيما كان النشيد الوطني العراقي (وطن مد على الأفق جناحا) يذاع صباح مساء وتردده ملايين الحناجر كل يوم كان مؤلفه (شفيق الكمالي) يئن من العذاب في المخابرات العراقية.

العاهل الاردني الراحل الملك حسين يتوسط لاطلاق سراحه

بعد ثلاثة شهور من العسف والاحتجاز أطلق سراحه، وتوجه الى دار شقيقه الكبير عبد اللطيف ليقص عليه رحلته في دهاليز المخابرات ويفرغ ما في قلبه من حسرات. بعدها مباشرة توجه شفيق للسكن مع زوجته في دار أخي هاشم ومعهما الابن تغلب. وعقب مضي نحو أربعة أسابيع من اطلاق سراحه، أطلق سراح ابنه الأكبر يعرب بعد أن أمضى في أقبية الأجهزة الأمنية نحو خمسة شهور احتجازا وتعذيبا. مما رواه شفيق بعد الاخلاء أن التحقيق معه كان يتواصل بين يوم وآخر بأسلوب لم يكن يقتضي كل هذا العذاب والمعاناة، الا أنه كان مقتنعا بوجود أسباب من الغيرة والحقد ومجرد الاذلال تقف وراء كل الذي جرى له. وذكر أن عاهل الأردن المرحوم حسين تدخل شخصيا لاطلاق سراحه فيما لم يجرؤ أحد من أصدقائه ومحبيه في الداخل على التدخل، لا لعدم اكتراث بل خشية المساءلة والعقاب. وفي لحظة ما استلقى شفيق على كنبة ليغمض عينيه، ويستعرض فيلما شريطا طويلا من الأحداث والعذاب منذ تعرفه على صدام حسين قاده الى أيام اللجوء الى القاهرة وتسجيله طالبا في الجامعة، حيث رشح في مرحلة لاحقة لرئاسة الاتحاد الوطني للطلبة العراقيين هناك، فانتخبه الطلاب بالأكثرية فيما حصل صدام على صوتين اثنين فقط!. أما منزل شفيق فقد خضع لهيمنة رجال الأمن طيلة أربعة أشهر، رفع بعدها الحجز عن المنزل فقط، وكانت المفاجأة لحظة دخول العائلة المنزل، اذ وجدته في حال مزرية من العبث والخراب وقد سرق ما كان فيه من ذهب ومال، ولم تنجُ ألواح فنية نادرة وحاجيات ثمينة من أياديهم. ولم تحاول العائلة تقديم شكوى لاستعادة المسروقات لقناعة الجميع أن الأمر لا يعني في النتيجة الا تبرئة الجاني وادانة المجني عليه.

كتب شفيق مبعثرة على ضفاف دجلة

كان أشد ما آلم شفيق مصير مكتبته العامرة، اذ وجد الكتب مبعثرة على ضفاف دجلة، حيث تقع داره، والريح تعصف بصفحاتها الممزقة وقد ابتلع النهر الكثير منها!. رفع ما تبقى منها مبثوثا بين الأحجار، وبدأ بتجفيفها والدموع تغالبه فتغلبه!. ثم حملها الى داخل المنزل، كما يُحمل الوليد، ليضع الصالح منها على الرفوف بمساعدة صديقه الأديب عبد الجبار العمر، الذي وافاه الأجل فيما بعد. أي فكر متخلف ونزعة حاقدة يقدمهما هذا المشهد؟! اضطر شفيق بعد ذلك الى المكوث في المنزل لا يبارحه، بعد أن منع من ممارسة نشاطه الاعلامي، وشُطبت عضويته في المجلس الوطني لغيابه ثلاثة شهور بدون عذر مشروع!، كما ورد حرفيا في قرار الشطب، وهي الفترة التي أمضاها في المخابرات مكرها. وحتى تكتمل السبحة سُحبت منه سيارته التي كان تلقاها هدية من صدام في وقت سابق، فبات يمضي وقته كئيبا منزويا في منزله.

قتل أم وفاة؟

في 15 كانون الأول (ديسمبر) عام 1984، بعد نحو عام على خروجه من المعتقل، توجه شفيق الى عيادة طبيبه الدكتور حكمت حبيب لاجراء الفحوص الدورية. وما أن وصل المكان، رفقة ابنه يعرب، حتى سقط مغشيا عليه بفعل نوبة قلبية حادة، فنقل الى مستشفى اليرموك ببغداد صحبة الدكتور حكمت حيث وافاه الأجل. كانت جموع المعزين تتوافد على مجلس الفاتحة صباح مساء من كل الأطياف الاجتماعية والسياسية، معبرة عن الأسى لفقدان رجل أحبه الناس لأخلاقه وانسانيته وأدبه. أعود الى أيام خروج شفيق من الاحتجاز، حيث أصبح قليل الكلام حتى مع عائلته متجنبا ذكر تفاصيل ما جرى له، خشية كلمة تفلت من لسانه تؤدي به هذه المرة الى مصيبة أعظم. كما كان يخشى من أجهزة تنصت في منزله زرعتها زمر المخابرات قبل أن تتركه، الى جانب بقاء عيون وآذان تلك الزمر مفتوحة على كل من يحيطه ويقترب منه.. ومن بين ما أسر به لزوجته تلقيه حقنة أثناء وجوده في المخابرات على أساس مساعدته في خفض ضغط الدم الذي كان يعاني منه!. وظلت هذه الحقنة، الى جانب ما كان يقدم له هناك من طعام وشراب، محل تساؤل الجميع بعد مغادرته المعتقل ثم وفاته بعد فترة قصيرة. الثابت هو تعرضه، بعد اطلاق سراحه، الى تغيرات صحية، حيث اكتشف الأطباء اصابته بسرطان الدم «لوكيميا»، مؤكدين أنه لن يحيا الا فترة وجيزة، ليقدر نتيجة ذلك حصر الأمر بينه وبين زوجته وطبيبه، وجاءت شهادة الوفاة الرسمية ذاكرة:

1 السكتة القلبية و2 ابيضاض كريات الدم (سرطان). ولم ينته حقد النظام عند هذا الحد، فبعد مضي 16 عاما على وفاة شفيق أعلن صدام أمام جمع من الأدباء في شهر تشرين الأول (اكتوبر) 2000 عزمه على الغاء النشيد الوطني الذي كان وافق عليه وصدر بقانون قبل نحو 20 عاما واستبداله بآخر! لكن النشيد الوطني الذي نظم كلماته شفيق بقي معتمدا رسميا للفترة 1981 ـ 2003، وهو من الحان الموسيقار اللبناني وليد جورج غلمية. وكان مطلعه: «وطن مد على الأفق جناحا.. وارتدى مجد الحضارات وشاحا» ونهايته «دمت للعرب ملاذا يا عراق.. وشموسا تجعل الليل صباحا».

زوجته... رفيقة دربه الطويل

اقترن شفيق بابنة عمه الصغرى (سامية ياسين قدوري) عام 1956، وكان الاثنان منخرطين في صفوف حزب البعث، واستمرت علاقتهما الزوجية والرفاقية الطويلة على المتانة حتى رحيلهما عن الدنيا. كانت (سامية)، عانت الكثير وخاضت صنوف المخاطر والصعاب بصبر خاصة أثناء اعتقال زوجها المتكرر، ولدى اكتشاف الوكر الطباعي في منزل الزوجية، مجازفة أكثر من مرة بالفرار مع أطفالها الى «البوكمال» و«دير الزور» حيث سكن الأقارب لتجنب التعقيب والمطاردة. ظلت واقفة الى جانب زوجها أيام الشدائد خلال العهد الملكي وأثناء حكم عبد الكريم قاسم، عبورا بفترة حكم العارف والعارف وانتهاء بعهد صدام حسين. في فترة الخمسينات والستينات قطنت العائلة دارا متواضعة مستأجرة في منطقة الأعظمية ببغداد خلف المقبرة الملكية، حيث شهدت الدار سنوات الاعتقال والمطاردة والهروب. وكانت الزوجة تمتهن التعليم، ثم كرست حياتها في السنوات التالية لرعاية الشؤون الاجتماعية، فتولت رئاسة جمعية مكافحة العلل الاجتماعية والاشراف على معهد رمزي للصم والبكم وذوي العاهات، وتضمن المرسوم الجمهوري رقم 7 لسنة 1973 تعيينها عضوا في الهيئة العليا للرعاية الاجتماعية في العراق. وبعد تولي البعث السلطة عام 1968 نشطت في المناسبات الوطنية والأنشطة النسوية، وأصبحت معروفة لدى الكثير من القياديين في الحزب والدولة، لكن هذا الموقف لم يشفع لها ولزوجها فيما بعد.

عندما زار صدام منزل الكمالي وأعجب به

في صيف 1982 كان صدام يجول (اعلاميا) على مناطق ريفية شمال بغداد فاتجه الى دار شفيق الجديدة الواقعة على ضفاف دجلة في منطقة (الصليخ) في الأعظمية. وفوجئت زوجته بالزائر فيما كانت منشغلة في المطبخ في تلك الساعة وزوجها غارق في مهماته في بغداد، وكان موكبه محاطا برتل ضخم من الأفراد وسيارات الحماية كما هي العادة. دخل صدام الدار وجال في أركانها وأعجب بالغرفة ذات الطراز العباسي ومفروشاتها الشرقية التي أقامها شفيق خصيصا للجلسات الأدبية والشعرية التي يتوق اليها مع أصحابه الأدباء. ولم ينه صدام الزيارة الا بعد نزوله الى قبو الدار للاطلاع على اللوحات الفنية التي رسمها شفيق بفرشاته. وكان صدام يلاطف أهل الدار، طيلة وقت الزيارة، لما بينه وبين شفيق من علاقة رفاقية قديمة، ولدور زوجته سامية النضالي في حزب البعث. بعد انحسار دور شفيق في الحزب والسلطة وانتهاء الأمر باعتقاله وابنه عام 1983، سعت قرينته، شقيقتي، الى التوسط لدى صدام شخصيا للافراج عن زوجها وابنها. وقد روت لي أنها ذهبت مع مجموعة رجال ونسوة متظلمين بسيارة كبيرة تابعة لأجهزة الأمن مخصصة لهذا الغرض، سارت بهم نحو مكان خارج بغداد لم تستطع التعرف عليه. وأثناء الانتظار الطويل في الصالة واستدعاء المتظلمين فردا فردا لمقابلة صدام بقيت الزوجة متلهفة لدورها كآخر شخص، لكنها فوجئت أخيرا برفض صدام مقابلتها، فعادت أدراجها مكسورة نادمة على كل ما مضى من تضحيات وزمالة رفاقية!. وحلت بعد ذلك مرحلة شقاء أخرى. ففيما رُفع الحجز الواقع على الدار بعد نحو شهر من اطلاق سراح شفيق استمرت بقية ممتلكاته الأخرى محجوزة الى ما بعد وفاته، واضطرت زوجته الى بيع ما تبقى لديها من محتويات ثمينة لتوفير لقمة العيش طيلة السنوات التي حرمت خلالها من راتب زوجها التقاعدي. ومرة أخرى لم يستطع أحد من محبي شفيق ومعارفه الكثر في بغداد التدخل في الأمر حتى حانت فرصة كانت بمثابة مكرمة السماء، اذ عقد في بغداد مهرجان المربد الشعري لدورته 1986/1987 شاركت فيه وفود من بلدان عدة، من بينها وفد من دولة الكويت يتقدمه الأديب والشاعر أحمد السقاف رئيس رابطة الأدباء الكويتية الذي ربطته بالمرحوم شفيق علاقة متينة عزز لحمتها عالم الأدب والشعر. بادر السقاف الى اثارة الموضوع لدى السلطات العراقية العليا، وبعد فترة قصيرة بادر بالاتصال هاتفيا من الكويت بزوجة المرحوم ليطلعها على وجود أنباء سارة في الطريق. وبالفعل، تسلمت الزوجة، بعد نحو أسبوع من الاتصال، خطابا من رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية يرفع الحجز عن أملاك شفيق الكمالي. وبقيت الزوجة، طيلة السنوات التالية، مدينة للموقف المشرف للأديب السقاف الذي وافاه الأجل قبل زمن قصير من تحرير هذه السطور. وبعد مضي نحو عشر سنوات على وفاة شفيق صدر قرار عام بتثبيت راتب تقاعدي لعائلة كل وزير سابق متوف، فشمل زوجته هذا القرار. ظلت سامية، الرفيقة الحزبية القديمة، تعاني من حقد السلطة، ذلك الحقد الدفين الذي لم يمت بممات زوجها. وأصيبت نتيجته بحالة الكآبة التي عمقها المكوث في منزل كان كل ركن فيه يذكرها بكفاح زوجها الوطني والقومي ونشاطه الأدبي والفني، فانتقلت للسكن في شقة متواضعة في «شارع حيفا» ببغداد. وزاد الطين بلة رؤيتها الدبابات الأجنبية تدنس التراب بدخولها العراق عام 2003 مؤذنة بسلب معالم تاريخه ونهب ثرواته. ورأت في كل ذلك منتهى الاهانة والاذلال وهي ما زالت مرتدية الثياب السوداء حزنا على رحيل زوجها المناضل. ولم تقو على مقاومة المشهد المؤلم فودعت الحياة في 28 نيسان (ابريل) 2003، بعد مضي أقل من ثلاثة أسابيع على احتلال القوات الأجنبية بغداد، فرقدت الى جانب زوجها في «مقبرة الشيخ معروف» بمنطقة الكرخ من بغداد، ليسدلا سويا الستار على مسيرة حياتهما ونضالهما المشترك.

الهوامش:

(1) بتاريخ 1982/6/28 أعيد تشكيل مجلس قيادة الثورة من صدام حسين رئيسا وعزت ابراهيم نائبا للرئيس، وطه ياسين رمضان وعدنان خير الله وسعدون شاكر وطارق عزيز وحسن علي ونعيم حداد وطه محي الدين معروف أعضاء. وفي ذلك التاريخ جرى تعديل وزاري كبير باعفاء ثمانية وزراء وادخال عشرة وزراء جدد، وتعيين ستة مستشارين لرئيس الجمهورية بدرجة وزير، وتعيين ستة أعضاء بوظيفة مستشار في مكتب المنظمات الشعبية. وأعلن ان التغييرات تقررت في ضوء نتائج المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي اختتم أعماله قبل يومين. ونجح طه معروف في ادارة المفاوضات وساهم بتعزيز علاقات العراق مع تلك الدول، واستقبله زعماؤها بكل ترحيب واهتمام، فيما تميزت أجواء العمل معه بالايجابية المفرطة. وكان يتحدث خلال الجلسات الرسمية وفي المؤتمرات الصحافية العديدة بلغة عربية سليمة.

(2) اعتلى ولي العهد أكيهيتو العرش الامبراطوري بعد وفاة أبيه هيروهيتو عام 1989.

(3) الأمير ميكاسا هو عم الامبراطور أكيهيتو، وعضو في مجلس البيت القيصري.

(4) كان الجدار الحدودي أقيم بين عشية وضحاها بتاريخ 13 آب/ أغسطس عام 1961 لمنع هروب الناس الى القسم الغربي من المدينة المانيا الغربية وانتهى أخيرا بالهدم عام 1990 اثر التغييرات السياسية التي انتهت باعادة الوحدة الألمانية.

* كاتب عراقي يقيم في بريطانيا

طه معروف والوفد المرافق في متحف «بيرغامون» ببرلين حيث نصبت اجزاء من «باب عشتار» الحقيقي

شفيق الكمالي وقرينته